نبذة العصر

في انقضاء دولة بني نصر

كانت غرناطة الموئل الأخير الذي لاذ به العرب في الأندلس ، بعد أن تساقطت مدنهم الكبرى وهوت حواضرهم الزاهرة في أيدي العدو المتغلب . وإن تاريخ غرناطة التي صمدت للعدو نحو مئتين وخمسين عاماً أو يزيد لهو ملحمةٌ بطولةٍ فذّة ، سطر صفحاتها الناصعة الفرسانُ العرب الأنجاد بدمائهم وتضحياتهم التي جاوزت المدى . وهو إلى ذلك مأساةٌ مروّعة ، تكشف عن فسادِ أكثر ملوك غرناطة واعوجاجهم ، وسوء تدبيرهم وتنابذهم واقتتالهم ، حتى أضاعوا الأندلس وأهله .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لم يصل إلينا من أخبار غرناطة في أيامها الأخيرة ، إلا النَّزْر اليسير ، فقد كان أبناؤها في شغل عن التأليف بالداهية التي ألمت بهم وأقضت مضاجعهم ، فهم بين عدوٍّ شرسٍ لا يرحم ، يتحيَّفُ أراضيهم ، ويستطيل عليهم ويشتد طمعه فيهم ، وملوكٍ عابثين ، صغار النفوس ، ضعاف الهمم ، لا يستحقون رئاسة ، ولا ينهضون لدفع أذًى أوردٍّ عادية .

وإنَّ كتاب « نبذة العصر في انقضاء دولة بني نصر » من الكتب القلائل التي بقيت لنا ، والتي شهد مؤلفها أحداث غرناطة ، وهي في الغسق ، حين ألقى ملوكها يد الصغار والذلة ، وأسلموها لأعدائهم ؛ ولم يبق أمام ناسها إلا أن يضرعوا إلى الله هاتفين : « لا غالب إلا الله » حسرةً على مانابهم من فادح المصاب ، وما نزل بهم من كوارث تتابعت لتنتهي بالفاجعة الكبرى حين استولى العدو على جميع بلاد الأندلس .

عرض المؤلف في كتابه أحداث الأندلس التي وقعت في أعوامها الخمسة عشر الأخيرة (٨٨٢ ـ ٨٩٧ هـ) في مدة ملوكها الضعاف الواهنين الثلاثة : أبي الحسن علي بن سعد ، وأخيه أبي عبد الله محمد بن سعد المعروف بالزغل ، وابنه أبي عبد الله محمد بن علي الذي نُبز بالصغير ، والذي تخلى عن الأرض والوطن ، فكان أخيب الخائبين .

ويروعك في الكتاب لهجة الصدق ونبرات الألم ؛ وهو يسوق الأحداث والوقائع ، يسردها رابط الجأش ، وإن كان يتنزَّى حزناً وأسىً وغيظاً . ها هو ذا يصف تسليم غرناطة ، وخيانة القابضين على زمام الأمور : « وقد زعم كثير من الناس أن أمير غرناطة ، ووزيره وقواده ، كان قد تقدم بينهم وبين ملك الروم النازلِ عليهم الكلامُ في إعطاء البلد ، إلا أنهم خافوا من العامة ، وكانوا يحتالون عليهم ويلا طفونهم ...

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فيا لها من فجعةٍ ما أمرَّها ، ومصيبة ماأعظمها ، وطامَّةٍ ما أكبرها ... فعلى هذا فليبك الباكون وَلْينتحب المنتحبون ... »[١٥] .

طبع كتاب « نبذة العصر » لأول مرة بمدينة ميونيخ (ألمانيا) عام ١٨٦٣ م ، قام بتحقيقه المستعرب الألماني مارك مولّر ، ونشره بعنوان (كتاب أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر) ضمن طائفة من النصوص التاريخية الهامة ، صدرت جميعاً في كتاب بعنوان (أشياء عن غرناطة)[١٦] .

ثم أعاد الأمير شكيب أرسلان طبع الكتاب في مجموع يضم : رواية آخر بني سراج لشاتوبريان ، وترجمة الأمير شكيب أرسلان (ص ١ ـ ٥٨) ، يليها كتاب خلاصة تاريخ الأندلس إلى سقوط غرناطة (ص ٦٠ ـ ٣٦٨) ، ويليهما كتاب أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر (ص ٣٦٩ ـ ٤٠٦) ثم أثارة تاريخية رسمية في أربعة كتب سلطانية عثمانية (ص ٤٠٧ ـ ٤١٣) . وقد طبع الكتاب بمطبعة المنار (مصر ١٩٢٥ م) وكانت رواية آخر بني سراج قد طبعت من قبل ذلك بمطبعة الأهرام سنة ١٨٩٧ م[١٧] .

واكتشف الأستاذ الفريد البستاني مخطوطتين للكتاب ، مخطوطة تطوانية تامة ، ومخطوطة مؤلفة من ورقات كانت متناثرة ، فرأى أن يعيد تحقيق الكتاب ، ونَشَره في العرائش (المغرب) عام ١٩٤٠ م بعنوان (نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر) ، وضم إليه ترجمة إلى اللغة الإسبانية ، نهض بعبئها المستعرب كارلوس كيروس[١٨] .

وقام بأخَرَة الأستاذ الدكتور محمد رضوان الداية فحقق الكتاب معتمداً رواية (نبذة العصر) التي حققها الأستاذ البستاني منبهاً على

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الفروق بينهـا وبين الطبعـة التي أشرف عليهـا الأمير شكيب أرسلان ، وعلـق على النص تعليقـات مفيـدة هـامـة ، وقـدمـه لقراء العربيـة داني القطاف ، بعـد أن قلّت نسخـه المطبوعـة ؛ وقـد أصـدره بعنوان : « آخر أيام غرناطة » . (دمشق ١٩٨٤م) .

الحواشي

(١) خطط الشام ٦ / ٦٧ .

(٢) في الحـديث الصحيـح عن أبي هريرة أن الرسـول صلى الله عليـه وسلم قـال : « لا تُشَدُّ الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد ، المسجد الحرام ، ومسجـدي هـذا ، ومسجـد الأقصى » رواه أحمد ٢ / ٢٣٤ وفي مواضع متفرقة من مسنده ، والبخاري ٢ / ٥٦ باب فضل الصلاة في مسجـد مكة ، ومسلم ٢ / ١٠١٤ (١٣٩٧) كتاب الحج باب لاتشد الرحـال ، والترمـذي عن أبي سعيـد الخدري ٢ / ١٦ أبواب الصلاة باب ما جاء في أي المساجد أفضل ، والـدارمي ١ / ٣٣٠ كتـاب الصلاة باب فضل الصلاة في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم ، وانظر مجلـة مجمع اللغـة العربيـة مج : ٥٤ ص ٧٥٨ حاشية (١٠) .

(٣) من مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ، طبع الجزء الأول عام ١٩٤٨ والثاني عام ١٩٥١ م .

(٤) حاول العلامة عبد القادر بدران طبع كتابه ، فأخرجت مطبعة روضة الشام منـه ملـزمـة واحـدة سنـة ١٣٣١ هـ ، ثم تـوقف فترة ليطبـع بعـدهـا بـدمشـق (١٩٦٠ م) . انظر « منادمة الأطلال » المقدمة : و .

(٥) انظر الأنس الجليل ٢ / ٣٣ وما بعدها ، ومجلة المجمع مج : ٥٤ ص ٧٨٥ ، ٧٨٦ .

(٦) ذكر الزركلي في الأعلام ١ / ١٣٠ (ط ١٩٧٩ م) مؤلفات الخالـدي بعـد أن ترجم له ، فعد منها « تاريخ المعاهد الإسلامية » في ثمانية أجزاء ، وأشار إلى أنـه مـازال مخطوطـاً ، كما ذكر كتاباً آخر « المعاهد المصرية في بيت المقـدس » طبع عـام ١٩٦١ م ، ولعل هـذا الأخير هو الذي عناه الدكتور طلس في مقاله .

(٧) المدارس في بيت المقدس ١ / ٧ و٢ / ٢٢٤ .

(٨) صدّر بدران كتابه الذي طبع منه ملزمـة واحـدة بهـذين البيتين ؛ انظر منـادمـة الأطلال : المقدمة : ف .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

(٩) المدارس في بيت المقدس ١ / ٤ ، ٥ .

(١٠) المدارس في بيت المقدس ١ / ٥ .

(١١) المدارس في بيت المقدس ١ / ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٤ .

(١٢) المدارس في بيت المقدس ١ / ١٨١ .

(١٣) المدارس في بيت المقدس ١ / ١٩٦ حاشية .

(١٤) الخوانق جمع خانقاه : وهو رباط الصوفية ومتعبدهم ، فارسية أصلها خانكاه ، والنون فيه مفتوحة ، وهو بقعة يسكنها أهل الصلاح والخير من الصوفية . قال المقريزي : وقد حدثت في الإسلام في حدود الأربعمئة ، وجعلت لمتخلّي الصوفية فيها لعبادة الله تعالى . والرِّباط : واحد الرباطات ، وهي دور يسكنها أهل الطريق ، وهم الصوفية ، والرباطات منازلهم التي يلازمون فيها مصلين وداعين الله لدفع البلاد عن العباد والبلاد ، كالمجاهدين المرابطين في الثغور الذين يدافعون عمن وراءهم . والزوايا كالخانقات والرباطات ، إلا أنها تقام فيها الأذكار ، وقد كثرت بكثرة الطرق والمشايخ المعتقدين ، وذلك بعد القرن السادس . انظر التاج (خنق ، خنقه ، ربط) وخطط الشام ٦ / ١٣٤ ، ١٣٦ .

(١٥) آخر أيام غرناطة : ١٢٣ ، ١٣١ ، ١٣٢ .

(١٦) كتاب نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر : ١٥ م ، ١٧ م ـ ١٨ م ، أخبار العصر (ذيل رواية آخر بني سراج) : ٤١٤ ، آخر أيام غرناطة : ٢٣ .

(١٧) رواية آخر بني سراج وذيولها (مصر ١٩٢٥ م) : ١ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٣٦٩ ، ٤٠٧ ، ٤١٤ ـ ٤١٥ ، آخر أيام غرناطة : ٢٣ .

(١٨) نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر : ٣ م ، ١٥ م ـ ١٩ م ، آخر أيام غرناطة : ٢٣ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net